# الفصل السابع

## تغير شكل المراهقة بتغير ظروفها

عرضنا فى الفصول السابقة أشكال أربعة للمراهقة ، ووصفنا سماتها المميزة والعوامل المؤثرة فيها ، وأوردنا الأمثلة الموضحة لكل شكل منها .

وإذا كان بعض المراهقين يجابهون ظروف ثابتة غير متغيرة لفترة طويلة وبذلك تنحو مراهقتهم نحواً واحداً متغلباً ، فإن هذا لا ينطبق على مراهقين آخرين — لعلهم الغالبية — ممن لا يدوم بهم الحال الواحد طويلا ، فلا تلتزم مراهقتهم بالتالى بشكل واحد ثابت . . . فلقد يطرأ التغير على المستوى الاقتصادى للأسرة أو للمراهق نفسه ، وقد تختلف حالة النشاط الجسمى أو العقلى للمراهق ، وقد تتبدل كذلك مجموعاته وبيئاته التى يتعامل معها فتتغير بذلك اتجاهاته وعلاقاته الاجتماعية ، إلى غير ذلك من الخبرات والظروف المادية والنفسية التى تعرض للناس فى حياتهم عادة !

ولعلنا لا نجانى الصواب إذا قلنا إن التغير والتطور يكاد يكون هو القاعدة ، والجمود ودوام الحال هو الاستثناء . . . وإذا رجعنا إلى نفس الأمثلة التى أوردناها لتوضيح الأشكال المختلفة فى المراهقة ، لمحنا فيها أحياناً أدلة تغيرات طرأت على شكل المراهقة مع التغير فى بعض ظروفها وعواملها

الفعالة . وربما كانت التغيرات فى تلك الأمثلة طفيفة أو متأخرة الحدوث ، عما لون المراهقة بلون واحد غالب فى جانبها الأكبر — على أن فى حالات البحث ، حالات قاطعة الدلالة على أن المراهقة لا يجب أن تثبت على شكل واحد ، بل قد تتخذ شكلا ما فى قسم منها وتتخذ شكلا مخالفاً فى قسم آخر . وقد يحدث التغير أكثر من مرة ، فتتخذ مراهقة الفرد الواحد عدة أشكال متلاحقة نتيجة للهزات والأحداث التى يتعرض لها المراهق ! وكما تتطور مراهقة بعض الأفراد من أحد أشكال عدم التوافق إلى صورة التوافق والاتزان ، فإن عكس ذلك يمكن حدوثه أيضاً — كما سيتبين من الأمثلة التى ستلى .

والتغير فى شكل المراهقة بتغير ظروفها ، التى تبرهن هذه الأمثلة عليه ، له نتائجه العلمية والتربوية الهامة . — فأما النتيجة الأولى فهى التثبت من قيام الصلة الوثيقة بين شكل المراهقة — المتوافقة أو غير المتوافقة — وبين ظروفها البيئية الاجتماعية . ( ولعل هذه الصلة قد وضحت وضوحاً كافياً فيما سبق من تحليل للعوامل المؤثرة فى أشكال المراهقة المختلفة ) . والنتيجة الثانية هى أن السلوك الإنسانى مرن مرونة كبيرة تسمح له بالتعديل والتهذيب والتطوير . والنتيجة الثالثة مترتبة على سابقتها ، وهى تؤكد قيمة التوجيه والعلاج واستخدام الأساليب التربوية المناسبة ، فى التأثير على صورة الانحراف أو العدوان أو الانطواء .. أما النتيجة الأخيرة فتتجه بها إلى أصحاب المحاولات المختلفة فى تقسيم فترة المراهقة إلى مراحل عامة متميزة فى نمو المراهقين جميعاً ؛ تبدأ كل مرحلة منها وتنتهى فى سن معينة ، ولها

خصائصها السلوكية المحددة التى تخالف بها المراحل الأخرى ، ويطلق عليها مرحلة المراهقة المبكرة أو الوسطى أو المتأخرة أو غير ذلك من الأسماء ! . . إننا لا نستطيع أن نجد فى الدراسة الحالية الدليل الكافى على اختلاف سلوك جميع المراهقين — أو حتى غالبيتهم — اختلافاً هاماً مترتباً على الفترة الزمنية التى يمرون بها من أعوام مراهقتهم . وإنما نجد « مراحل » يختص بها كل فرد بمفرده ، ويختلف فيها شكل مراهقته وسماتها المميزة باختلاف عوامل خاصة وظروف خاصة فى حياته ، وكذلك بتأثير المنحنى الخاص بنموه الذى لا يتفق فيه مع منحنى النمو لآخر غيره !! ونعتقد أن التقسيم إلى مراحل خاصة بكل فرد أكثر جدوى ودلالة من أى تقسيم آخر يفترض فيه التشابه بين المراهقين جميعاً .

وقد اخـــترنا من حالات البحث الأمثلة الخمسة التالية كنماذج لاتجاهات مختلفة فى تطور المراهقة ، ولأسباب مختلفة أدت إليه : —

١ — اتصفت هذه المراهقة فى جانب كبير منها بالانطواء والانصراف إلى القراءة وكتابة المذكرات وإلى التأمل الدينى الفلسفى ( أى أنها كانت أقرب إلى الشكل الثانى للمراهقة الذى سبق وصفه ) . وأثر على هذه الاتجاهات عدة عوامل ، من بينها افتقار الجو الأسرى إلى التعبير الصريح عن الحب ، وعدم وجود أخوات للمراهق ، وانغماسه — منذ الطفولة — فى بيئات دينية صرفة . . . ثم تمت للمراهق خبرة ، كان من شأنها تلطيف جو المراهقة واقترابها من التوافق والإشباع (الشكل الأول) .

فقد اتجه المراهق إلى استغلال فراغه فى الصيف بالاشتغال فى أحد المحلات ، حيث باشر عملاً يدوياً مكن له من موازنة اتجاهاته النظرية المتقلبة ، وحقق له قسطا من الاستقلال الاقتصادى عن المنزل . وفى مجال هذا العمل ، قابل فتيات من زميلاته ، أشبعن عنده حاجته إلى « الأخت » . وكان قد التحق بالجامعة كذلك ، فأسهم جوها المختلط فى أن تتحول مراهقته نحو الاستقرار العاطفى والهدوء والعمل المنتج !

فقد كان المراهق ينتمى إلى أسرة من الطبقة المتوسطة ، ممعنة فى التزمت والمحافظة . وأدى افتقاد المراهق للجو الحانى المطوف فى الأسرة ، إلى محاولة متعمدة للهروب من المنزل بعد أن خلف وراءه رسالة عدد فيها الأخطاء التى أخذها على أبويه ، وبالأخص تفرقتهما فى المعاملة بينه وبين بعض الإخوة . . وقد نجحت هذه المحاولة فى تحقيق الغرض منها حيث بحث عنه والده بحثا طويلا وطوقه بذراعيه حين رآه . ويصف المراهق شعوره فى تلك اللحظة ، فيقول : « أحسست بأن لى قيمة كبيرة فى الأسرة ، فشاع الاطمئنان فى نفسى . . » ، وقد انعكس افتقاد المراهق للجو الأسرى الحانى فى اللوحات التى رسمها ، والتى كان من بينها رسوم لأمهات يحتضن أبناءهن ، ولعائلات تفترش الرمال سيفا . . . كذلك كان المراهق يراسل عددا من الفتيات الأجنبيات فى الخارج ، ليعوض بذلك افتقاده الأخوات .

وكان المراهق منخرطا منذ طفولته فى سلك « شمامسة » الكنيسة ،

فاتجهت حياته — وخصوصا لانعدام النواحى الرياضية والعملية فيها — إلى التأملات الدينية الفلسفية ، وإلى الاهتمام « بتحليل النفس والخبرات التى تمر بها » ، وإلى كتابة المذكرات الخاصة التى وصف فيها خواطره وأحواله وكذلك تأثراته بالطبيعة وما فيها من ألوان الجمال .

ثم بدأت مرحلة جديدة من الاستقرار والإشباع النسبى فى حياة المراهق ، وذلك عندما اتجه إلى استغلال العطلة الصيفية فى الحصول على المال اللازم لتوفير بعض حاجياته . فقد اشتغل كاتبا فى أحد مصانع التطريز ، وما لبث أن اكتشف ميله إلى العمل بالتطريز نفسه ، فأخذ يتدرب على إحدى الآلات حتى أتقن العمل بها ، مما حدا بصاحب العمل إلى إلحاقه بهذه الصناعة — وبذلك بأشر المراهق لأول مرة فى حياته نشاطا عمليا يدويا وازن به بعض الشىء طغيان اتجاهه النظرى السابق ، وحقق به استقلالا اقتصاديا جزئيا ! وأتاح له العمل — على حد قوله — إشباع حاجته إلى « الأخت » فى أحاديثه مع العميلات وزميلات العمل . . وقد تطور بعد ذلك من هذه المرحلة إلى تخصيص عاطفته نحو إحدى زميلاته . وساعد التحاق المراهق بالجامعة كذلك واندماجه فى جوها المختلط على اتزانه النفسى وتخففه من كثير من توتراته السابقة .

٢ — وهذه مراهقة طبعها لفترة غير قصيرة التمرد والعدوان والمغامرات العابثة ، ( الشكل الرابع ) وذلك بتأثير الثلل التى شارك فيها المراهق والجو الذى يشبه الإباحية فى النشأة المنزلية . . فما لبثت حتى تعدلت صورتها

واقتربت من المراهقة السوية المتكيفة ، ( الشكل الأول ) بعد انضمام المراهق إلى أحد الأندية الدينية الاجتماعية وبعد أن عهد إليه فى المدرسة بمزيد من المسئولية ! .

فقد كان هذا المراهق ينتمى إلى أسرة أرستقراطية ، مثالية فى الاتجاه « المصرى » التحررى ! وسمحت هذه الأسرة للمراهق بحرية كاملة فى التصرف ، مادام محافظاً على شرط واحد هو نجاحه المدرسى ! . . وكان المراهق لذكائه الممتاز ينجح فعلاً فى دراسته ويتفوق فيها . كذلك كان يتمتع بتكوين جسمى ممتاز وحيوية متدفقة ، اتجهت — بحكم الوسط المحيط وانعدام التوجيه الأبوى — إلى العبث والانسياق مع الأصحاب فى تيار المغامرات المستهترة . . . أما فى المدرسة ، فقد كان المراهق كثير التحدى والنقد لمدرسيه ، وكان يفاخر بأنه أقدر من بعض مدرسيه على الشرح وحل مسائل الرياضة وغيرها . كما تزعم حركات ( التهريج ) و ( التفكيت ) فى الفصل وخارجه ! ولجأت المدرسة عندما تكررت مشاغباته بها إلى إبعاده عنها يوماً أو أكثر ، فكان يأتى بأى شخص يقابله فى الطريق العام ، ليوقع للمدرسة التعهد اللازم نيابة عن والده ! ! .

وقد تغير حال هذا المراهق تغيراً شاملاً نتيجة عنصرين جديدين فى حياته ؛ أولهما أنه انضم إلى أحد الأندية التابعة لجمعية دينية ، وفيه تعرف على أحد رواده ووثق به ، فباح له بجوانب حياته التى لم يكن راضياً عنها وبالمزالق التى انحرف إليها سلوكه ، واستطاع هذا الرائد أن يوجهه إلى

أهداف إيجابية بانية وأن يرتقى بقيمه إلى مستويات اجتماعية أعلى . . وأما العنصر الثانى ، فهو أن المدرسة تنبهت — متأخرة — إلى استغلال كفاية هذا المراهق وحيويته الدافقة ، بأن عهدت إليه بأن يكون زعيما و«رائداً» لفصله . وكأنما قد عثر المراهق أخيراً على ضالته والدور الذى يتناسب معه ، فأصدر « مجلة حائط » ممتازة ، وكون فى الفصل « فرقة إنقاذ » يساعد بها التلاميذ بعضهم بعضاً فى تفهم دروسهم ، واشترك أيضاً فى كرة السلة وبرز فيها . . . وساعد كل هذا على إرضاء طموحه وقدراته المتميزة ، وبالتالى على اختفاء سلوكه العدوانى فى المدرسة ، حيث أصبح محبوباً من ناظرها ومدرسيها بالإضافة إلى زملائه .

٣ — وفى هذه الحالة الثالثة ، تطورت المراهقة تطوراً يعاكس ماحدث فى الحالتين السابقتين . فقد بدأت هادئة متوافقة ، حيث كان المراهق ناجحاً اجتماعياً ومقبلا على الرياضة وناجحاً فى دراسته كذلك ، ( الشكل الأول ) ثم حدثت أزمة فى العلاقات داخل الأسرة ، ترتب عليها تخلخل أمن المراهق ، وانسحابه من المجتمع ، وإصابته بما يشبه الانهيار النفسى ( الشكل الرابع ) .

فقد كان هذا المراهق السابع بين ثمانية من الأبناء فى أسرة رقيقة الحال ، وكان والده مهتماً اهتماماً خاصاً بتعليم أبنائه ، وخاصة لأنه لم يحظ هو نفسه بالقدر الكافى من التعليم . فكان اهتمام الوالد هذا مدعاة لعناية المراهق بدروسه ولنجاحه بتفوق فيها . كذلك اهتم المراهق بالرياضة

وبالنواحى الاجتماعية التى مارسها فى أحد الأندية . وكانت حياته النفسية آمنة بصفة عامة ومشبعة إلى حد كبير . .

وحدث بعد ذلك أن أحيل الوالد إلى المعاش ، ثم تزوج الأخ الأكبر وإن ظل يقيم مع باقى الأسرة . . ودب سوء التفاهم الشديد بين الأخ والأب ، بسبب احتياج الأخير إلى المال لإتمام تعليم أبنائه وعجز الأول عن المعاونة الكافية بعد أن تزوج ! وسببت الإحالة إلى المعاش ضيق أخلاق الأب وسرعة انفعاله ، كما وجد الأخ فرصته للخروج على سيطرة أبيه — فتطور الخلاف بينهما إلى درجة تلوّن معها الجو الأسرى كله بلون حالك ، وتأثر به المراهق فأصابته حالة من الاضطراب النفسى الشديد . . وكان من الأعراض المرضية التى عاناها المراهق ، ( الكوابيس ) الليلية المتكررة ، و ( السرحان ) وعجزه عن تركيز انتباهه ، وتصوره سماع أصوات مختلفة ( هلوسة سمعية ) ! ولقد تأثر فى كل ذلك بإحساسه بالخزى وعار الأسرة وبمشاعر النقص الحادة عنده . . . كذلك لجأ المراهق إلى اعتزال الناس ، وكان لا يجرؤ على النظر إلى محدثه وخاصة إذا كان ممن يكبرونه سناً أو مركزاً ! .

ومن الطريف أن حالة المراهق تحسنت بعد إذ أقام أخوه بعيداً عن الأسرة ، فساد الهدوء المنزل . . وعند ما اشترك فى الصيف التالى مع بعض زملائه فى مشروع تجارى ، تخفف كثيراً من خجله وزادت قدرته على الاندماج بالناس كما زادت كذلك ثقته بنفسه !

٤ — وتوضيح هذه الحالة الرابعة ، كيف أثر الصديق الخاص للمراهق على تغيير اتجاهاته وقيمه فى الحياة وعلى تحول شكل المراهقة الأصلى . . .

فقد كان المراهق أصغر أبناء أربعة فى أسرة محافظة ، أثرت أساليبها فى التربية على ضغط شخصيته ضغطاً شديداً . وكان إلى جانب هذا يشعر بالنقص لضآلة جسمه ، ويخشى ممارسة الرياضة ، بل يلتمس الأعذار لتجنب الاشتراك فى حصة ( الألعاب ) بالمدرسة . . ولكل هذا انطوى المراهق على نفسه ، واهتم بالتركيز على دراسته وبالتفوق فيها كوسيلة لتعويض النقص وللحصول على التقدير . كما استغرق فى الجنسية الذاتية وأحلام اليقظة وباقى مميزات صورة الانطواء ( الشكل الثانى ) .

وكان المراهق صديق خاص يخالفه فى اتجاهاته ونوع القيم التى يؤمن بها ، حيث كان صديقه — على عكسه — رياضياً ، وكان كذلك لا يلقى اهتماماً كبيراً إلى المواد الدراسية ! . . وبينما اجتهد الصديق فى إغرائه بالرياضة وبقيمتها لتنمية الجسم وللحصول على تقدير الآخرين ، اجتهد المراهق فى إغراء صديقه بالتركيز على الدراسة وبقيمة الشهادة المدرسية . وكان أن نجح المراهق فى التأثير على صديقه وحثه على الاهتمام بالدراسة ، حتى تهيأ لهما الالتحاق سوياً بكلية من كليات الجامعة ؛ الأمر الذى جعل أسرة الصديق ترضى رضى كبيراً عن هذه الصداقة بينهما ... ومع أن المراهق لم يتحول إلى الاهتمام بالرياضة فى المرحلة الثانوية ، إلا أنه تأثر بصديقه

تأثراً كامناً ، ظهرت علاماته بعد الالتحاق بالجامعة . فقد أقبل على رياضة الملاكمة حتى برز فيها ، وحصل على بطولات رياضية مكنت له من فرص التقدير الاجتماعي . . كذلك ساعدته إقامته بعيداً عن الأسرة على التخلص من آثار التربية الانسكالية الأولى ، فتغيرت صورة الانطواء وحل محلها الصداقات المتعددة والعلاقات الاجتماعية الواسعة ، واقتربت مراهقته بذلك كله من التوافق والإشباع ( الشكل الأول ) !

٥ — وربما كانت هذه الحالة الخامسة تمثل ما حدث لعدد من المراهقين القرويين الذين كانوا يعيشون فى المدينة خلال السنة الدراسية ويمضون العطلة الصيفية بالقرية ، فيختلف شكل مراهقتهم شتاء عنه صيفاً ! — يتحكم فى ذلك اختلاف تأثيرات كل من المدينة والقرية ، بالإضافة إلى وجود الرقابة الأسرية فى القرية والتخفف منها مع ممارسة تبعات الحياة الاستقلالية بالمدينة ! ( وينبغى أن يستثنى المراهقون الذين كانت ظروفهم بالقرية ميسرة ومساعدة على التكيف السوى ، وكذلك المراهقون الذين كانت ظروفهم المعيشية بالمدينة من أسباب صعوبات تكيفهم بها )

والمراهق الذى تخصه هذه الحالة هو أكبر إخوته ، وكان والده موظفاً بالقرية وإن لم يكن من أهلها الأصليين . وقد أقام المراهق بالمدينة فى أثناء الدراسة الثانوية ، فسكن مع أخ يصغره وقريبين أخوين يقاربانه سنا .

واستطاع المراهق فى المدينة أن يشبع حاجته إلى الانتماء والتقدير ،

حيث صادق قريبيه الذين شاركاه المسكن وصادق كذلك أصدقاء لها من أعضاء جمعية دينية ، كان لها نشاطها الاجتماعي والخيري الكبير . . وأحس المراهق في هذا الوسط وفي مساهمته في نشاط جمعيته بالإشباع النفسي وتحقيق الذات . كما كان سعيداً بحياته الاستقلالية في المدينة ، وبمناينه بأمر نفسه ، وعدم تعرض تصرفاته للرقابة أو النقد . وكان كذلك ناجحاً متفوقاً في دراسته !

وأما القرية — التي كان يقضي بها عطلة الصيف — فكانت خالية من وسائل الترفيه وتمضية الفراغ ، ولم يجد فيها كذلك أنداداً من المتعلمين ليتخذ من بينهم الأصدقاء . وكانت رقابة أسرته عليه وتدخلها في كل صغيرة من أمره ، مما ضايقه ودفعه في أحيان كثيرة إلى الثورة وتحدي سلطان أبيه . . فكانت توترات المراهقة بالنسبة إليه ، أكثر تعقيداً في الصيف منها في بقية العام ! !

## اختلاط شكل المراهقة

إلى جانب تطور المراهقة من أحد أشكالها إلى شكل آخر كما وضح من الأمثلة السابقة ، تقابلنا في البحث الحالي حالات جمعت في آن واحد بين ملامح شكلين أو أكثر من الأشكال السابق تعيينها ، فلا يسهل بذلك إدراجها تحت شكل واحد منها .

وربما كانت حقيقة الأمر أن مراهقة أغلب الأفراد تجمع عادة بين

صنفين من العوامل : بعضها عوامل بانية مؤازرة وبعضها الآخر عوامل هادمة معوّقة . ولقد تسود العوامل البناءة فى حالة ما فتأخذ المراهقة الشكل الأول أو شيئاً قريب الشبه به ، أو تسود عوامل الإحباط والهدم فتتشكل المراهقة حينئذ بأحد الأشكال الأخرى ... على أن العوامل من النوعين — البانى والهادم — تكاد أن تتكافأ فى عدد من الحالات ، فإذا بالمراهقة تتخذ شكلا وسطاً مائعاً ، يجمع بين أسباب التوافق وعدم التوافق ويتخلخل بين الحالين !

والمثل الآتى يوضح مراهقة جمعت إلى الظروف القاسية المحبطة بعض الاتجاهات المشبعة التى اقتربت بها من التكيف :

فقد كان المراهق أكبر الأبناء الذكور فى أسرة ريفية محافظة . ولما كانت أمنية الوالد التى لم يحققها لنفسه هى التعلم بالأزهر ؛ فقد اتجه بهذه الأمنية إلى ابنه الأكبر ففرضها عليه فرضاً . . ولم يشعر المراهق باتفاق هذه الدراسة مع ميوله واستعداداته ، فحاول مراراً أن يتحول عنها إلى التعليم المدنى . والتحق سراً بأحد المعاهد الليلية لهذا الغرض ، ولكن والده علم بذلك فأعاده قسراً إلى الأزهر ! . . وكان المراهق يضيق كذلك بالزى الدينى ، فخلع العمامة وأغرى آخرين أيضاً بخلعها ، مما جوزى عليه بالفصل من الأزهر فترة وبالعقاب الشديد والتأنيب من والده .

وعانى المراهق من كسر فى قدمه أصابه وهو بعد طفل فى الثانية ، فكانت هذه العاهة البدنية بالإضافة إلى قصر قامته قصراً حمل إخوانه على

التندر به، من الأسباب التي أثرت في شعوره الحاد بالنقص وأدت إلى عصبيته الزائدة وسرعة استفزازه . . وقد لجأ في تعويض النقص إلى ارتداء حذاء عالي النعل ، وإلى المبالغة في التأنق حيث بلغت أربطة العنق عنده نحواً من الخمسين ! . . ولجأ أيضاً إلى وسائل تعويضية أخرى ناجحة ، استغل فيها تفوقه في الكتابة الأدبية ومقدرته على الخطابة الارتجالية في المساجد . وكان يفخر بذكائه واقتنائه مكتبة عامرة بالكتب . .

وأثرت ظروف أخرى على تعقيد صورة المراهقة ؛ منها فشل خطوبة أقدم عليها وهو في السادسة عشرة من عمره ، وموت أخ صغير بعد مرض بالقلب ، وفراق « شيخ كردي » كان المراهق يرى فيه مثله الأعلى إذ تعلم على يديه « الصيام والتفاني في سبيل نقاء الروح وسوء مغبة التعلق بزيف الدنيا ! »

وبالرغم من هذه الظروف ، فقد انتفع المراهق بذكائه وباتجاهاته الاجتماعية والإنسانية في تكييف حياته والتغلب على الصعوبات التي واجهته — فاتجه إلى مساعدة الغير وخاصة الضعيف والمحتاج ، وتصدق على الفقراء واشترك في الخدمات العامة لجمعيتي الإسعاف والهلال الأحمر ، وتطوع أيضاً للجهاد في فلسطين وإن منعه لغط في القلب عن ذلك — كما منعه عن الاشتراك في الجوالة من قبل — . . وقد حزن لرفض تطوعه ، ولكنه قام بدعوة للتطوع بين أصدقائه ، وأقبل على جمع المال للهيئة العربية لإنقاذ فلسطين » .

كذلك كان يكتب أحيانا فى المشكلات الاجتماعية ، ونشرت له إحدى المجلات ما كتبه عن « أولاد الشوارع » . . . وهكذا استطاع هذا المراهق أن يوازن — إلى حد كبير — عوامل الإحبـــاط والتعويق فى حياته ، وإن لم يمنع ذلك من تذبذب مراهقته بين صورة التوافق وعدم التوافق ! . .